نظرت الى هؤلاء اللاجئين نظرة غير عادلة تخفض من قيمتهم . واذا كانت هذه النظرة ، ولفترة طويلة ، عامة في كثير من المجتمعات العربية ، الا انها كانت في العراق عنيفة قاسية وربما يعود ذلك الى الطبع الحدي الذي تتميز به السيكولوجية العراقية مما يؤدي الى الاحكام القطعية القاسية. وقد استتبعت تلك النظرة انكماشا في المجتمع الفلسطيني وحدت من انفلاشه فيما حوله .

هذه العوامل التي ذكرنا ، بالاضافة الى العوامل العامة التي تنطبق على الفلسطينيين في كل مكان مثل ضرورة الحفاظ على الشخصية الفلسطينية باعتبار ذلك مصلحة وطنية وموقف الرأي العام العربي من الفلسطينيين عزز « عدم الذوبان » الفلسطيني في العراق . ولكن هل يعني هذا ان فلسطينيي العراق معزولون عن الحياة السياسية فيه ؟ ثم ما مدى مساهمتهم في هذه الحياة وما هي مواقعهم السياسية والوطنية ؟ ذلك ما سنجيب عنه فيما يلي شاطرين البحث الى مرحلتين : ما قبل الثورة الفلسطينية ، وما بعدها واثناءها .

الفلسطينيون قبل الثورة الفلسطينية : لم تكن الساحات العربية التي لجأ اليها الفلسطينيون عام ١٩٤٨ لتخلو من اوجه النشاط السياسي ، ومع النكبة اضيف بعد جديد للعمل السياسي والوطني في العالم العربي تجلى في الشعارات و «البرامج» الجديدة التي تدعو لعودة الفلسطينيين الى ديارهم وتحرير ارضهم . وكان من الطبيعي والمنطقي ان ينخرط الفلسطينيون في مثل هذه النشاطات ويتوزعوا بين الاحزاب العربية المتواجدة واحيانا ليسهموا في ايجاد اخرى جديدة متخذين من تلك الاحزاب وبرامجها وسيلة لتحقيق هدفهم الكبير في عودتهم الى وطنهم ما دامت جميعها تضع هذا الهدف في صميم برامجها وتجعل له الصدارة في جملة شعاراتها .

وفي العراق بحث الفلسطينيون عن موضع قدم لهم في خضم هذه التيارات والمذاهب السياسية المتعددة التي كانت ولا تزال تجتاح العالم العربي والعراق في جملته . غير ان الدور الذي مثله الفلسطينيون على مسرح السياسة العراقية ظل دورا هامشيا عديم التأثير مسلوب الارادة(٣٨). ويعود ذلك في رأينا الى عدم اندماجهم في المجتمع العراقي من جهة ومن جهة اخرى وهو السبب الاهم الى قلة عددهم مقارنا بمجموع الشعب العراقي مما جعل نصيبهم في المؤسسات السياسية والحزبية نادرا نسبيا ولا يكاد يذكر .

غير ان هذا لا يعني ان فلسطينيي العراق لم يتأثروا بالتيارات السياسية والوطنية التي رأوها تصطرع امامهم . هم لم يقفوا منها موقف المتفرج بل انفعلوا بها وانجرفوا في مدها . وكان ايمانهم بالثورة العربية ، باهدافها التي طرحتها ، ايمانا لا يرقى اليه شك . وقد وجدوا في « الناصرية » علامة بارزة من علائم هذه الثورة عندما كانت الناصرية لا تزال في اوج مجدها وعنفوانها ووجدوا فيها طريقهم الى وطنهم فدان معظم فلسطينيي العراق بمبادئها وحملوا شعاراتها وآمنوا بصاحبها منقذا ومحررا . وقد عانى الفلسطينيون كثيرا من جراء ذلك خاصة في العهود التي كانت على خلاف مستحكم مع « الناصرية » . والى جانب الناصرية بل دونها بدرجات اجتذبت الاحزاب عددا من الشباب الفلسطيني في العراق الذين ظلوا في حدود الكم المعدود ودون ان يكون لهم دور يستحق التسجيل في القيادة او المسيرة(٣٩). ومن نافل القول ان نؤكد ان الاحزاب التي استأثرت بانتباه الفلسطينيين هي الاحزاب ذات البرامج القومية بالدرجة الاولى وان كانت الاحزاب الاممية والدينية لم تخل من بعض الفلسطينيين بخلاف الاحزاب ذات البعد الاقليمي (كالحزب الوطني الديموقراطي) التي لم تحظ بانتباه الفلسطينيين ولم تشغل بالهم. وربما يكون تقديرنا صحيحا الى حد بعيد اذا صنفنا ان حركة القوميين العرب وحزب البعث العربي الاشتراكي هما اللذان كان لهما النصيب الاكبر من اقبال الحزبيين الفلسطينيين ويندرج بعدهما في الاهمية الحزب الشيوعي ثم جماعة الاخوان المسلمين . ولكن نؤكد مرة اخرى ان الاعداد التي انخرطت في النشاط الحزبي ظلت اعدادا محدودة جدا ولا تشكل ظاهرة كما ظلت غير متنامية امام الانتماء الناصري لفلسطينيي العراق الذي ، وان كان اصحابه لم ينتظمهم تكتل ما ، فقد ظل يحرم الاحزاب من كسب المؤيدين .

والى جانب تأثير الناصرية على الاتجاهات السياسية الوطنية لدى فلسطينيي العراق فان خصوصية التجربة الحزبية في العراق بالاضافة الى وضع الفلسطينيين هناك كان لها نتائج لا نقلل من قيمتها في موقف الفلسطينيين السلبي ازاء الاحزاب ونشير الى هذا الامر اشارة سريعة :